العبقرية والعباقرة

عند

العقاد

● الأستاذ. أحمد عبد الرحيم السايح●

الكتابة عن العبقرية والبطولة أو العباقرة والأبطال خط واضح مميز في كتابات العقاد.. وهذا الخط له أهمية خاصة عند الدارسين فهو عنوان تندرج تحته عناوين كبيرة من حيث الموضوع والدلالة. فالشخصيات الإنسانية التي كتب عنها العقاد منها ما هو أدخل في فن التراجم، ومنها ما هو مزيج فني بين الترجمة والدراسة. وهي في الحالين، وعلى أي الصورتين مفتاح من مفاتيح نفسه هو. وشخصيته هو..(١).

دراسة العقاد لطرز مختلفة من الشخصيات. فيه لون من المقابلة يعمد إليها لأنها في نظره وتقديره أنفع الدراسات النفسية. فهي دراسة نافعة لفهم حقيقة الإنسان، وفهم حقيقة الجماعات، ونافعة لكل من يعنيه أن يحسن تقدير الأعمال الكبرى، والدعوات الشاملة، ونافعة لمتعة العقل، وتوسيع آفاقه..(٢).

والعقاد يختلف عن غيره ممن كتبوا في الإسلام. حيث استخدم في تناول المادة الإسلامية ثلاثة مناهج مختلفة: فحين يكتب العبقريات غيره حين يترجم للشخصيات. غيره حين ينشيء الدراسات والأبحاث.. فالبحث فيما كتبه الفيلسوف العقاد عن الإسلام يقتضي التمييز بين تناوله للعبقريات، والشخصيات، والدراسات(٣).

والعقاد يقسم النوابغ من أصحاب الرسالات والترجمات إلى فئتين فيقول: إنني علمت من تجربتي في قراءة التراجم وكتابتها أن النوابغ من أصحاب الرسالات فئتان: فئة تظهر في أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت، وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان.. وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت، وهي تظهر لتحقق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها، وله منها معنى يذلل صعابها، ويهدي إلى طريقها(٤).

والعبقري عند العقاد إنسان يقيس الأشياء بمقياسه الخاص الذي يعلو على مقاييس العامة، ويأخذ نفسه به، وأنه إنسان لم يخلق لخدمة نفسه، أو أسرته، أو عشيرته وكفى.. بل هو مَنْ خُلِقَ لخير إنساني عام، وأُوتي من القوة ما يخدم به غيره، ولو اتخذ هذا الخير الإنساني العام صورة عالية أو قومية أو وطنية أو قبلية(٥)..

والعبقرية عنده تنمو على البذل والعطاء، ولا تتورم بالنهب أو السلب، أو الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر. باختصار عظمة العبقري عند العقاد هي التي تقول: نحن ولا تقول «أنا» مبتورة الجذور والفروع عما حولها. وحتى لو سمعت منها «أنا» فلا نفهم معناها إلا «نحن»(٦).

وآية العبقرية عند العقاد: سبق الرؤية فضلاً عن وضوحها. فآية العبقرية أن تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفراً، ويحسب في الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ومصلحة من مصالح الواقع والعيان..(٧).

وأجدر عبقرية عنده بإعجاب وتشريف معًا عبقرية يلتقي فيها سداد الفكر بشجاعة الضمير، والدنيا لا تضن بإعجابها على عبقرية تنفرد بالفكر السديد، ولا عبقرية تنفرد بالخلق الحميد(٨).

ويريد العقاد بالعبقرية: الإلهام الرباني، ووضوح الرؤية، والتوقيعات في الرأي والفطنة الواجبة، وبلوغ هذا كله، مجتمعاً ومتفرقاً، غاية تثير الإعجاب عند من خبروها بالتجربة أو السماع.. ولا يتجاوز الأمر هذا إلى ضلاعة العقول، أو فتوحات العلم.. لأن عصرهم كانت حاجته أشد إلى نور الهدى، وخلق النفوس، وإشاعة قيم جديدة وقد نجحوا في هذا نجاحاً تحويلياً نقل قومهم من حال إلى حال يستحق من أجله أن يسمى عبقرية..(٩).

على أن العقاد أوضح بنفسه طريقته في الترجمة، وغايته منها. وهما يكادان يكونان شيئاً واحداً، هو: «التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من حالات النبل والأريحية. فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني، وتخرجه من غمار التيه والظلمة، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال..(١٠).

وشرط العظمة عند العقاد، فيمن ترجم لهم همة الجبابرة من رجال العمل، وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة. يظاهر هذا ويقف وراءه خلق مكين يقاوم كل إغراء، ولا يتخاذل أمام الوعيد.. وهو يرى في عظمة العظيم أو عبقرية العبقري صورة من صور العظمة الإنسانية وهي بهذا وحده تستحق الوقوف عندها، والكتابة عنها، فضلاً عن دلالتها في تفسير أطوار الأمم، وأسرار التاريخ. بل إن العظمة أو العبقرية في مفهوم العقاد هي شخصية فذة متميزة بالتفرد الفوقي، شخصية فعالة بذاتها وقدراتها في عصرها، وغالباً يمتد قوة أثرها إلى عصور قريبة أو بعيدة. تغيب هي ويبقى الأثر.(١١).

والعقاد في كتابته عن العبقريات أو العباقرة يجمع بين فلسفتين متباينتين: هل البطل يصنع التاريخ؟.. أم التاريخ هو الذي يصنع البطل؟..

أو كما يتساءل العقاد: هل للبطولة شأن في حياة الأقوام أو هي في حياة الأقوام صفر على اليسار؟.. هل المادة وحدها هي الترجمان المفسر للتاريخ أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد تهزم المادة وتنقضه وتتحداه؟..

العقاد يرى أن العبقري يولد كالفلتة التي تنبت على غير قصد في فرع من فروع شجرة الحياة، ثم تصبح الفلتة مثلاً يحتذى، وقالباً يصب فيه الأنداد والنظراء.. والبطل والعبقري يتشابهان في التفدية بكل شيء في سبيل الغاية التي يقصدان إليها أو ينساقان إليها على غير قصد منهما. والناس ينساقون معهما ولو أهلكتهم مطامع البطولة ومطالب العبقرية..(١٢).

ويفرق العقاد بين العبقري والبطل، بقدر ما بينهما من أفضلية العبقري، فإن البطل قد ينحرف عن الجادة الكبرى مرضاة لكبريائه وسلطانه. ولا يكترث العبقري لجاه أو سلطان إذا حادا به عن غايته، وهي خلق الأمثلة الجديدة، والقيم البديعة في أحلام الناس، ثم في واقع الحياة..(١٣).

حصيلة هذا: إن العبقرية تفرُّد يؤيد استحالة التساوي بين الناس في المواهب، بل استحالة إنقاص الفارق بينهم فيها. والعبقرية صفة العبقري وحاله، وهي جملة المواهب السامية التي تمكّن صاحبها من التفوق. ولها عند الفلاسفة تعريفات مختلفة فهي عندهم إلهام سريع، أو حدس قوي، أو صبر طويل، أو قوة خلق وإبداع، أو قدرة عجيبة على التحليل والتركيب.. وإذا أضيفت العبقرية إلى الفرد، دلت على ما يتصف به من استعدادات طبيعية خاصة، وإذا أضيفت إلى آثار الأفراد أو الجماعات، دلت على ما تتصف به هذه الآثار من أصالة..(١٤).

والعقاد حين يكتب عبقرياته لا يكتفي بالعرض المنظم تنظيماً آلياً أو شبه آلي، بل ينسق الملامح البارزة في كل صورة، وينفخ فيها من روحه وروح العبقري الذي يكتب عنه فيحييها من نفوس قرائه، حتى يعاطفوا عبقريته، فيجدوا في نفوسهم آثار فضل كفضلها، ويلموا بجمل من لغتها.

ومن ثم يشعر القارىء بالغبطة، لأنه يرى أنه قد ارتفع فوق نفسه، وحلّق في أفق أعلى مما اعتاد أن يحلّق من آفاق، بل يمتلىء من العبقرية بأكثر مما أداه العقاد إليه ويلقن من آياتها أكثر مما لقنه، ويضرب بجناحه في أفق أعلى مما أراد العقاد له أن يحلّق.. ذلك أن العقاد في عبقرياته لا يقصر خطابه على قارئه، بل يحرك كل حياته ويستجيش كل ما تشتمل عليه من

عاطفة وشعور وخيال وبداهة وتأمل وتفكير..(١٥).

وفي البحث عن منهج العقاد في تناوله العبقريات نجده يهتم أولاً، بل يجهد نفسه ويرهقها لإيجاد مفتاح للعبقري الذي يتعرض له.. وبهذا المفتاح يفتح الأستاذ العقاد مغاليق هذا العبقري ليعرف مدى عظمته وحدودها، وما يصدر عنها من أفعال، وتصرفات وقيمتها بالنسبة للإنسانية عامة..

وهذا بالطبع يتطلب من العقاد الفهم الواعي لمفتاح هذا العبقري.. أمراً يجعله يقوم بالتحليل النفسي(١٦) الدقيق لهذه الشخصية التي يراها عبقرية، ثم الإحاطة الشاملة لملابسات العصر الذي عاشت فيه..

وقد يحدث أن يتشابه مفتاح إحدى شخصياته مع مفتاح شخصية أخرى، ولهذا يكد العقاد ذهنه في البحث عن اختلاف في السلوك(١٧) الإنساني بوجه عام لهاتين العبقريتين المتشابهتين في المدخل. فعند البحث مثلاً عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب وجده في طبيعته كجندي، ونفس هذا المفتاح «طبيعة الجندية» وجده لعبقرية خالد بن الوليد .. وهنا يوضح العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر تغلب عليه من طبيعة الجندية ناحية «الروحية» بينما تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحية «الحيوية» أو بعبارة أخرى كانت جندية ابن الخطاب «موزعة حكيمة» بينما جندية ابن الوليد «مدفوعة هاجمة»(١٨).. وحينما يشرع العقاد في كتابه: عبقرية محمد «يقول»: إن عبقرية محمد عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والأفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن ، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع، ثم لا يقال أنه استنفد كل الاستنفاد.

وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعاً عنه، أو محاولة لخصومه. فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها(١٩).

إنما الكتاب تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى. وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان وليس في قلب كل مسلم وكفى..

فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس.. عظيم لأنه على خلق عظيم، وإيتاء العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل قبيل..(٢٠).

وإذ يتفق العقاد مع الدكتور هيكل في أن ما جاء به محمد يتفق مع العقل نجد أنهما يختلفان في طريقة الرسول في مخاطبة العقل.. الدكتور هيكل يرى أن هذا الخطاب كان خطاباً مباشراً يتجه إلى عقول الناس، التي تمتلك من الفطرة والتجربة ما يمكنها من التفريق بين الحق والباطل. والأستاذ العقاد يرى أن هذا الخطاب كان غير مباشر لأنه كان يتجسد في أعمال النبي وسلوكه أي في شخصه العظيم..(٢١).

وإذا كان بعض المفكرين المسلمين ومنهم الإمام محمد عبده(٢٢) والدكتور هيكل(٢٣). يرون أن إيمان الإنسان بالله سابق على وجود الأنبياء.. لأنه كيف يصدق رسالة النبي إذا لم يؤمن بوجود الله الذي يبعث النبي.. فإن العقاد يرى أن محبة الناس لشخص الرسول كانت سابقة في قلوبهم، وأرواحهم، لحب العقيدة والإيمان. أو أنهم أحبوا الرجل الذي تمثلت فيه العقيدة على أكمل مثال فانبهروا بالرجل المثال، وآمنوا بالعقيدة التي بدت أمامهم ممكنة بل متحققة..(٢٤).

والإنسان العبقري أو الإنسان البطل هو محور اهتمام العقاد كله. والبطولة الإنسانية عند العقاد تقف في مقابل الضروريات الطبيعية، والقوانين الحتمية المألوفة. الإنسان في مقابل الطبيعة، الفكر والإرادة في مقابل الغريزة والضرورة.

فالعقل خلق المادة وليس العكس، لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها، وفاقد الشيء لا يعطيه، والله موجود لأن تفسير الحقيقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من تفسير يقول به الماديون. وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي إلى توفيق. أو يلجئه إلى زعم لا يقوم عليه دليل.. وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير، فضلاً عن تصديق الدين وتصديق الرسول والدعاة.. فالقول بالتطور في عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول، لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شيء جديد في العالم، وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ في اللسان فضلاً عن الفكر، أو الخيال.. والقول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات في تركيب الأجسام أو الأحياء..(٢٥).

العقاد يرى أن عبقرية النبي، هي التي فتح بها قلوب الناس كما فتح البلاد والأمصار. هي سليقة نفسية، وطبيعة فطرية، لابد للبيئة أو للمجتمع أو للعصر من صنعها(٢٦).

ولقد ترجم العقاد لعدد من الشخصيات الإسلامية. وهو لا يعني أن يسجل سيرهم، إنما يعني أن يحلل تلك الشخصيات، ويوفيهم حقهم من التنظيم والتقدير والتوقير وكثيراً ما نبّه على ذلك في كتاباته عنهم ولا سيما كتاباته عن العباقرة. فهو لا يكتب عنهم ترجمة أو سيرة أو تاريخاً فهذا لم يقصده، وليس هو منهجه. وحسبنا دلالة على منهجه كلمة «عبقرية»(٢٧).

وبهذا النهج الخاص بالعقاد، وتميزه عن غيره ــ يبرز العظيم في صورته التي تميزه عن نظرائه، ويعطي الشخصية قدرها. ولم يحاول أبدا أن يقول في الشخصية ما ليس فيها، ولكنه يعمد إلى الحقيقة والصدق وهو ينظر إلى الحادثة ومهما كانت بنظره الثاقب إلى أبعاد هذه الحادثة ويحللها، ويستخرج منها ما يدل على الأمور النفسية التي تدل على حقيقة الشخص وتميزه.. ولقد ميز بين من يستحق العظمة أو من يمكن أن نسميهم عباقرة، وبين من يستحق الامتياز فحسب، ولا تلحقه صفة العبقرية.

ولقد تناول العقاد أبابكر الصديق في عبقريته. ويقول في تقديمه «عبقرية الصديق»: إنني لم أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره، ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع، ولا بالأخبار من حيث هي أخبار.. فهذه موضوعات لم أقصدها، ولم أذكر في عناوين الكتاب ما يعد القارىء بها، ويوجه استطلاعه إليها(٢٨).

إذن ماذا كان يقصد العقاد بعد ذلك من تأريخه للصديق أبي بكر؟ يقول: إنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرفنا به. وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله، كما تجلو الصورة ملامح ما تراه العين.. فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره. وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر، إلا بذلك المقدار. ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته. بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التي تجيء عرضاً في بعض المناسبات تتقدم لهذه السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ(٢٩).

ويخرج المؤلف من ذلك إلى الحديث عن أوصافه العظيمة، ويستعرضها جسمية وخلقية، كلها تدل على عظمة الرجل.

ثم ما هو مفتاح شخصية أبي بكر؟.. فكل شخص له مفتاح شخصية كما أن البيت له

مفتاح. ومفتاح شخصية أبي بكر الإعجاب بالبطولة ولهذا المفتاح دلالته(٣٠). وهذا الإعجاب بالبطولة هو الرسم الذي يتسم به كل عمل من أعمال أبي بكر وكل نية من نياته، وهو السر الذي نراه كامناً في كل رأي يرتئيه، وكل قرار حاسم يستقر عليه.. هذا هو مفتاح شخصيته الذي به استطاع أن يفتح مغاليق نفسه ودخائلها(٣١).

يقول العقاد: إن مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها. وهو مفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض. فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق. وليس مفتاح البيت وصفاً ولا تمثيلاً لمشكله واتساعه.. وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها، ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ولا تزيد(٣٢).

ولكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه، أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات، وهنا أيضاً مقاربة في الشكل والغرض من مفاتيح البيوت.. فرب بيت شامخ عليه باب مكين يعالجه مفتاح صغير، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح.. فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر، ولا بالحسن والدمامة ولا بالفضيلة والنقيصة فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير(٣٣).. فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول، وهو هذا المفتاح، مفتاح الإعجاب بالبطولة.. وهذا الإعجاب بالبطولة هو الرسم الذي يتسم به كل عمل من أعماله، وكل نية من نياته.. وهو السر الذي نراه كامناً في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه(٣٤).

والإعجاب بالبطولة في التاريخ الإنساني شيء عظيم.. ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها، والركون إليها، لأن الفضيلتين معاً لازمتان جنباً إلى جنب في كل أمر جليل، ثم في تاريخ الإنسان، وكل طور من أطوار التقدم ارتقى إليه.. وليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاءون وليقل أصحاب القياس المنطقي ما يحبون فشاءوا أو لم يشاءوا، وأحبوا أو لم يحبوا.. لقد تم بغير التحليل العلمي، وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الإنسان.

ولم يتم قط ولن يتم ــ فيما نرى ــ أمر عظيم واحد بغير البطولة، وبغير الإعجاب بالأبطال.

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية، فالرجل الذي ينهض له البرهان النفساني على الثقة ببطل من الأبطال، فيثق به، ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى، أو الآخذ بغير دليل، كلا.. فعمله ونتيجة عمله كلاهما برهان يغنيه عن مصنع التحليل وعن قضايا المنطق. ويغني العالم كذلك عنهما إذا نظرنا إلى العمل، ثم نظرنا إلى النتيجة ونظرنا قبل هذا وبعد هذا إلى طبائع الإنسان(٣٥).. ولقد كان أبوبكر رجلاً كريماً أليفاً من أهل الخير والمودة، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعاً متأصلاً فيه مقروناً بكل ما في الإعجاب من حب، وثقة، وإيمان، ولا جرم كان هذا الإعجاب مفتاحاً لشخصيته، مفسراً لكل ما يلتبس من أعمال، مميزاً لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات(٣٦).

ويعقد العقاد مقارنة بين أبي بكر وعمر.. أبوبكر عظيم وعمر عظيم ولكن لكل منهما صورته التي يتميز بها.. عجباً أن يكون الرجلان العظيمان متقابلين.. وأن يتميز الرجل العظيم من بين نظرائه. وهذا يتوقف على قدرة العقاد الفائقة على إبراز، هذين المثلين العظيمين، كل في صورته وعظمته، ولم يقل إلا ما هو حق وصدق.

يقول العقاد تحت عنوان: نموذجان: النموذجان المتقابلان في الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة في كل أمة، ولا سيما خلال النهضات التي تبرز فيها كوامن الملكات، وتمتحن فيها حقائق الأخلاق. وعهد التاريخ بها في شئون الضمير كعهده بها في شئون المعرفة والحكمة في شئون السياسة والتشريع، أو في كل شأن له أثر بيّن في أعمال الناس.. فاصطلح النقاد على تسمية هذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون، والنموذج الأرسطي نسبة إلى أرسطاطاليس أو النموذج الذي يتمثل في النظريات ويتعلق بما وراء الطبيعة. والنموذج الذي يتمثل في التجربة والمشاهدة، ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة.. وفي الأدب والفن يوجد المثاليون عُشّاق المثل الأعلى، والواقعيون، طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصفون الناس على ما هم عليه.. وفي السياسة محافظون ومجددون وفي التشريع حرفيون ومعنويون، وفي العقيدة أو فقه العقيدة مقتدون ومجتهدون، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون، وأصحاب أثرة أو أصحاب إيثار.. وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضدين اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ، والخير والشر، والعلم والجهل، والهدى والضلال.

ولكن المقصود ــ كما يقول العقاد ــ هو التقابل الذي يتمم فريقاً بمزايا فريق، ويعيد قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر، ولا يستقل بفرد جناح.. هذان النموذجان معهودان لازمان. معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها، وجميع مزاياها، وجميع ما فيها من عدد الأهبة والحيطة، وبواعث الإقدام والإحجام.

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها واحتجب عنها إمامها وهاديها. وأصبح لزاماً بعده أن تتقابل القوى وتتعاون الجهود.

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة في الأمة العربية بين عشية وضحاها. فإذا الأمة العربية كلها كأنما هي حشد مستعد بكل عدة، متزود بكل زاد.. ظهر فيها أقطاب الشجاعة، وأقطاب الدهاء، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون، وظهر فيها الخياليون والعمليون، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه.

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول، يوشك أن يجتمع فيها كل ما تفرق في غيرهما من الملكات والشمائل والميول.. نموذجان كبيران تغيب في أطوائهما جميع النماذج الصغار.. وهما نموذج الصديق ونموذج الفاروق(٣٧).

ويمضي العقاد بفكره الفلسفي العتيد.. فيقول: بين هذين الرجلين العظيمين تقابل كثير الشعب، متعدد الأنحاء. تقابل ينتهي إلى التجاذب والأخاء، ولا ينتهي إلى التدافع والنفار، كانا يحومان معاً في نطاق كوكب واحد، أو نظام كوكبي واحد، كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة، هي لها جميعاً مركز أصيل لا تنفصل عنه.

وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس، العقل والعاطفة والمحافظة والتجديد والواقع والمثل الأعلى، وما لا يحصى من الألوان والشيات والأطراف والحدود..

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التخليص من فارق واحد يطويها من معظم نواحيها، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء، ونموذج الاجتهاد. كان أبوبكر نموذج الاقتداء في صدر الإسلام غير مدافع.. وكان عمر في تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مراء(٣٨).

وهكذا تتجلى فلسفة العقاد في رسم الصورة النفسية التي تجلو الملكات والأخلاق، وبواعث الأعمال، ويحس العقاد بما يخامر بعض النفوس إزاء هالة الجلال التي يحيط بها صور هؤلاء الرجال، فيقرر: ومن همنا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق في جملتها وتفصيلها.. فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها، ولسنا نريد أن يطلع القارىء على تلك الصورة فلا يعرفها ولا يعرف أبابكر منها.. ولكن تجميل الصورة شيء، وتوقير صاحبها شيء آخر. فإنك إذا صورت أبابكر ورفعت صورته مكاناً عالياً لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله، أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها، فهذا هو التوقير الذي لا يخل بالصورة ولا يعاب على المصور، وليس هو التجميل المصطنع الذي يضل الناظر عن الحقيقة.. فكل فضيلة أثبتناها لأبي بكر في هذه الصفحات فهي فضيلته لانزاع فيها. وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال، وما من عمل لم يعمله قلنا إنه قد عمله، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته، ثم يتوسمه القارىء بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله فهو محمود موقر، وعمر بن الخطاب في صورته محمود موقر، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان، ولا يتراءى أحدهما في ملامح الآخر، وهذا قصاراك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظرائه وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه.(٣٩).

وقد مضى العقاد يجسّم مثالية أبي بكر الخلقية، وما امتاز به من الإلفة وحسن العشرة والتواضع، ولين الجانب، ومروءته وصدقه، حتى سُمّيَ الصديق، نعتاً اختص به، مع حدة المزاج وشدة الذكاء، وصفاء الروح، والطموح إلى المثل الأعلى، وما زال يرسم ملامح شخصيته ويدرسها حتى وقف على مفتاحها الدقيق. وهو الإعجاب بالبطولة. وهو إعجاب جعله أول المقتدين بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأول المهتدين به عن وعي صادق، وإيمان عميق(٤٠).

وحين يتناول العقاد بالدراسة شخصية عمر، فلا يدرس فيه الخليفة الذي هزم القياصرة والأكاسرة. وإنما يدرس شخصيته الإنسانية العظيمة بسلائقها النفسية، وأخلاقها العليا الممتازة.. شخصية تجمع القوة والعدل والرحمة والحزم والتضحية والحصافة وسداد الرأي والغيرة على الحق والاستقامة(٤٢).

وهذا الكتاب «عبقرية عمر» يرتبط بظروف معينة مربها العقاد وذلك حين امتلأت الدنيا، بأن الألمان سيدخلون مصر بعد هزيمة الإنجليز في العلمين، ولما كان العقاد قد كتب

عن النازية «هتلر» كتاباً هو «هتلر في الميزان» لم يتملق فيه الازية أو زعيمها، وإنما قال كلمة الحق. لذلك كان من أعدى أعداء النازيين.. وهنا اقترح الأصدقاء على العقاد أن يترك البلاد فسافر إلى السودان. وكان وقتها مستمراً في دراسة مادة هذا الكتاب، وقد أشار من بعيد إلى هذه الواقعة(٤٢) وذلك في المقدمة التي جاءت في عبقرية عمر حيث يقول: «ثم تأليف هذا الكتاب في أحوال عجيبة، هي أحوال بأس وخطر، فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذي أدرته عليه، لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر في آن «فما شرعت في تحضيره وبدأت في الصفحات الأولى منه حتى رأيتني على سفر بغير أهمية إلى السودان، فوصلت إليه وليس معي من مراجع الكتاب إلا القليل(٤٣).

ويبين العقاد الغرض من تأليف كتاب «عبقرية عمر» فيقول: وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره، على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والأنباء، لكنه وصف له ودراسة لأطواره، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من الخصائص لعلم النفس، وعلم الأخلاق وحقائق الحياة. فلا قيمة للحادث التاريخي جل أو دق إلا من حيث أفاد في هذه الدراسة(٤٤).

وما زال العقاد يدرس خصاله الرفيعة حتى عثر على مفتاح شخصيته الذي فتح به مغاليقها، وهو طبيعة «الجندي» في صفتها المثلى من الشجاعة، والحزم والصراحة والخشونة، والغيرة على الشرف، والنجدة والنخوة، والنظام، والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق، وحب الإنجاز في حدود التبعات والمسئوليات. وما أن عثر على هذا المفتاح حتى انكشفت له شخصية عمر بجميع أعمالها وعلاقاتها، ووجوه عظمتها(٤٥)..

وتحت عنوان «عبقري» في كتاب «عبقرية عمر» يقول العقاد بعد أن سجل حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم: «لم أر عبقرياً يفري فرية»(٤٦) كلمة قالها النبي عليه السلام في عمر رضي الله عنه، وهي كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء، تُخلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال. فمن علامات العظمة التي تحمي موات الأمم، أن تختص بقدرتين لا تعهدان في غيرها. أولاهما: أن تنبعث كوامن الحياة، ودوافع العمل في الأمة بأسرها وفي رجالها الصالحين لخدمتها.. والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس، فتعرف بالبديهة الصائبة، والوحي الصادق،

فيم تكون عظمة العظيم، ولأي المواقف يصلح، وبأي الأعمال يضطلع، ومتى يحين أوانه، وتجب ندبته(٤٧) ومتى ينبغي التريث في أمره إلى حين. كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر في سيرة عمر بن الخطاب(٤٨).

إن عمر شخصية بارزة في تاريخ الإسلام، وله مثله المتميز من بين عظماء الإسلام وعباقرته، جَمَعَ العبقرية في كل صفاته فهو الممتاز بعمله، الممتاز بتكوينه.

وإن عمر هو رجل المناسبة في كل عصر. حيث زعم عُبّاد القوة الطاغية.. أن البأس والحق لا يجتمعان.. ونحن إذا عرفنا رجلاً كعمر هدمنا كل مزعمهم لأنه جمع ذلك. كان غاية في البأس، وغاية في الرحمة، وغاية في العدل.. جمع القوة، والشدة، والخشونة إلى جانب اللين والرحمة(٤٩). أي رجل كان هذا الرجل؟ وأي عدل كان عدله؟..

وملامح العبقرية من جميع نواحيها التقت في الإمام علي كرم الله وجهه، حيث امتزجت العاطفة في مصرعه بخيال الشجاعة في بطولته، كما التقى سمو الفكر فيه برهافة الحس عنده.. وفي وسط هذا الطريق الشائك يبحث العقاد عن مفتاح لشخصية الإمام علي، وسرعان ما يعثر عليه.. فيقول تحت عنوان «مفتاح شخصيته» في كتابه «عبقرية علي» آداب الفروسية، هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة، الذي يقصد منها كل مغلق، ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.. وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة وهي: النخوة (٥٠).

وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه وعادة من عادات «الفروسية» العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها، وينشأ في حجرها، لأن للغلبة في الشجاع أنفه تأبى عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزري في العلانية.. وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء، فلم ينسى الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط في الشرف(٥١).

وفي عبقرية خالد، يصورها لنا العقاد العبقرية الحربية المظفرة، وما امتازت به من صفات القائد العظيم المفطور على النضال والشجاعة والجلد واليقظة وحضور البديه وسرعة الملاحظة،

وقوة التأثير، ووضوح الخطط عند الحاجة إليها، في موضعها الدقيق ويظل يتفرس جوانب شخصيته إلى أن يعثر على مفتاحها وهو سليقته كجندي، وهو نفس سليقة عمر بن الخطاب. الإثنان مفتاح شخصيتهما الجندية(٥٢).. يقول العقاد.

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة، إلى معالم الشخصية، وطبائع القوة النفسية، فكلاهما يجوز أن يقال فيه أنه «جندي» بالفطرة وأن مفتاح شخصيته هو السليقة الجندية، فإذا أحضرنا في أخلادنا كلمة «الجندي» أو الجندي المطبوع لم نجد في ابن الخطاب ولا في ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة في معنى من معانيها.. وبين الرجلين فارق لاخفاء به في الخلق والتفكير، لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة، فكلاهما جندي مطبوع على الخلائق الجندية ولكن ابن الخطاب تغلب عليه من مزاج الجندي، ناحيته الروحية، أو ناحية الضمير، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب.. وأصح من هذا أن نقول إن عمر كان جندياً في أخلاقه الوازعة الحاكمة، وأن خالداً كان جندياً في أخلاقه الدافعة الهاجمة(٥٣).. فهما جميعاً جنديان مثاليان ولكنهما يختلفان في النفسية والأخلاق(٥٤).. فارق بين نفسين، أو بين رجلين، أو بين شخصين، أو بين وسطين اجتماعيين(٥٥)..

ويمضي العقاد في تحليل شخصية هذا البطل الذي بلغ القمة التي لا مرتقى بعدها لراق بالنصر الساحق في المعارك التي خاضها وكان فيها سيف الله المسلول على أعدائه.

وقد ذكر العقاد لكل عبقري من السلف في كتاباته عنهم في عبقريات «مفتاح شخصية» يعرف بها الرجل أو أنها تعم معظم صفاته.

ويقول الأستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي في رسالته للدكتوراه «تجديد الفكر الإسلامي في العصر الحديث»: وميزة العقاد في هذه العبقريات أنه قدم للإنسانية وللغرب خاصة رجال الإسلام بأسلوب العصر، وأسلوب الغرب ذاته، في تناول الأبطال، ووزنهم بالميزان النفسي أو السيكولوجي، فلقد درس العقاد تاريخ هؤلاء الرجال، ثم أعمل عقله من أجل الوصول إلى ميزان يجمع بين أعمال الرجل باحثاً عن مفتاح واحد للشخصية، ولما يصدر عنها من أعمال(٥٦)..

ويمضي الدكتور عبد المعطي في قوله: وقد كان هذا الأسلوب جديداً بلا شك قدَّم به

العقاد في وضوح ثروتنا في العظمة الإنسانية، وفي وقت كانت الحضارة الغربية بمؤسساتها الاستشراقية والتبشيرية، تهاجم رجال الإسلام، وتبرز أبطال الإنسانية الآخرين(٥٧).

فالعقاد قد استن سنة في كتابته عن أشهر العبقريات الإسلامية، وهي أنه يسجل مواقف هذه العبقريات دون استناد إلى شواهد من القرآن. فهو يريد أن يتقدم بكتبه عن الشخصيات الإسلامية إلى كل إنسان، وإلى أي إنسان في الأسلوب الذي يقبله العقل ولا يرفضه المنطق. ولا يأخذ العقاد دليلاً من القرآن على صدق ما يقوله عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما يود أن يطلّع عليه أي إنسان فيسلم بما فيه لسبب آخر غير كونه من أبناء المسلمين المؤمنين بكتاب الله، إنه يخاطب القارىء من أي دين، ومن أي فئة(٥٨)..

وإنه لنافع للمسلم أن يقدر «محمداً» بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم فلا يسعه إلا أن يقدرها، ويجري على مجراه فيها، لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين. مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس، وحسبنا من عبقرية محمد أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان.. عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد، ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية(٥٩)..

فالعقاد لم يستشهد بكتاب الله في توضيحه للمواقف المحمدية، لأنه أراد أن يعالج الموضوع على مستوى إنساني عام..

والعقاد في كتابته عن العبقريات الإسلامية، يريد أن يقول: إن العلم يختلف عن الفلسفة، وأن الفلسفة تختلف عن الدين ولكل من الدين والعلم والفلسفة مقاييس خاصة لا تختلط بمقاييس سواه وإذا حكّمت مقاييس العلم عند نظرك في أمر الدين، تبينت لك فيه أخطاء جسام. وإذا رجعت إلى مقاييس الدين في نظرك إلى مبادىء الفلسفة وجدتها لغواً وعبثاً. وهناك أمور لا مرجع فيها لغير القيم الوجدانية، ومثل ذلك موضوعات الجمال، والحب، والأخلاق المثلى(٦٠). ونظرة العقاد هذه نظرة فلسفية عميقة.. ونظرة العقاد في كتابته للسير إنسانية محضة، وعندما يحاول استشفاف شخصية صاحب السيرة، يعمد إلى تسليط الأضواء الإنسانية على جميع جوانبه، حتى يرى عنصر الأصالة في روحه وعبقريته، ولا غرابة في اختصاص العقاد بكتابة العبقريات. بل ربما كانت العبقريات أصلح الأعمال وأكثرها ملاءمة لطبيعته الحساسة

المتفتحة على عوالم الشعور والفكر..

ويقول الدكتور عبد المعطي بيومي: ولا يقلل من قيمة العبقريات ما هاجمها به بعض الكتاب حين صدورها، وحتى الآن. نذكر منهم غازي التوبة حيث أشار إلى أن العقاد أقام الحديث في العبقريات على أن مكونات الشخصية هي المعدن الممتاز لهذه الشخصية ووحي ملكاتها الممتازة أولاً، مع إن مكونات الشخصية هي الإسلام أولاً.. يقول «أيهما له الفضل في توجيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أولاً.. أوحى ملكاتهما الممتازة؟ أم وحي عقيدة الإسلام؟ **العقاد يقول:** وحي ملكاتهما الممتازة يوجه أولاً..

نحن نقول، أو حقيقة الأمر تقول: وحي عقيدة الإسلام يوجه أولاً»(٦١) وتوضح الدراسة بأنه لا مجال للمقارنة بين «الشهاقة» في أعجز قمة بشرية وأميزها وبين الشهاقة في قمتي أبي بكر وعمر «فلا يكفي امتياز المعدن ــ لتفسير هاتين القمتين الفريدتين أو بشكل أدق لتفسير الإعجاز فيهما..

يجذب أبصارنا ــ مباشرة ــ بناء العقيدة الإسلامية الذي يتلاءم مع الفطرة ويلبي حاجتها، وينسق مواهبها، وينمي أجزاءها، ويجذب أبصارنا هذا البناء، وقد ملأ ذات ابن الخطاب، ولبس كيانه، والتحم به، وتغلغل في كل ذرة منه، وسرى فيه مسرى الدم.. يقرع أسماعنا ــ مباشرة ــ صوت المربي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام متحدثاً عن صاحبيه في فهم عميق لأبعاد نفسيهما، كأحسن ما يدرك المربي مادة تربيته.

ثلاثة معادن مجتمعة تفسر الإعجاز في شخصيتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ المعدن الممتاز. العقيدة الإسلامية الإلهية. المربي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام. ولو تناولنا أية صفة بارزة في شخصيتي أبي بكر وعمر لوجدنا سمات العناصر الثلاثة واضحة في جلائها وإخراجها، العقيدة الإسلامية تعطينا بُعداً معيناً في الطول والعرض والارتفاع، ويدا محمد عليه الصلاة والسلام تغرسها في موضعها، وتصقلها وترعاها على الزمن(٦٢).

والدكتور عبد المعطي بيومي بعد أن عرض رأي العقاد، ووجهة نظر الأستاذ غازي التوبة قال: ولكننا نشعر بصواب رأي العقاد: إن المعدن النفيس للشخصية لدى أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب العبقريات كان أولاً. ثم جاء الإسلام بعد ذلك فأضفى على هذا المعدن العبقرية..

ويذكر الدكتور عبد المعطي بيومي دليلاً على شعوره بصواب رأي العقاد فيقول: إن تفاوت الصحابة رضوان الله عليهم شيء ثابت مع أنهم كانوا جميعاً قمماً عالية في الإنسانية المؤمنة الصادقة، فمن أين جاء هذا التفاوت إذن؟

لو قلنا بأن العامل الأول في تكوين الشخصية وتوجيهها هو الإسلام، لما كان ذلك تفسيراً معقولاً لهذا التفاوت. ولكن التفسير المعقول بأن الإسلام يصادف معدنا ممتازاً فيصفو به هذا المعدن من أوشاب الجاهلية، وتشحذ به كل المواهب والإمكانيات، ويصادف الإسلام معدناً أقل امتيازاً فيأخذ هذا المعدن من الإسلام على قدر المعدن أولاً، ثم الإسلام، وتربية الرسول صلى الله عليه وسلم(٦٣).

ويضيف الدكتور عبد المعطي قائلاً: على أن العقاد لا يبحث شخصيات العبقريات بمعزل عن الإسلام، ولا يبحث عبقرية الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم بمعزل عن النبوة، بل عنده: إن العبقرية هي «مزيج من المواهب الشخصية والنبوة عند الرسول، ومزيج من المعدن والإسلام عند عباقرة الإسلام الآخرين».

يقول العقاد في مقدمة المقدمات «في مطلع النور»: جاء محمد بدين الإنسانية في أمة العصبية، جاء ينكر كل إله غير الواحد الأحد، في عالم يؤمن بكل إله غير الواحد الأحد، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد في كل بيعة وكل مقام. محمد وحده يقدر على ذلك؟ أمحمد يقدر عليه بعناية الله؟ أدنى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الإيمان، وأنآهما عن الصواب، أنآهما عن الله. ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة، لتخرج بالتاريخ الإنساني كله إلى عالم جديد(٦٤).

وبعد أن يسجل الدكتور عبد المعطي بيومي النص السابق ليؤكد صواب ما اتجه إليه الفيلسوف الكبير العقاد، يمضي في تفنيد وجهة أخرى ذهب إليها غازي التوبة.. يقول الدكتور عبد المعطي: وليس أبعد عن الحق، ما يقوله غازي التوبة: من أن العقاد كتب العبقريات ليطعن على تنظيمات الأخوان المسلمين، فبينما يصرح العقاد أنه كتب عبقرياته لأن : «إيتاء العظمة حقها لازم في كل أونة. وبين كل قبيل.. ولكنه في هذا الزمن، وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى، لسببين متقاربين، لا لسبب واحد.. أحدهما: أن العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة، ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط

الحق، معرض للجفوة والنكود.. والسبب الآخر: أن الناس قد اجترأوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز، وتظلمهم المساواة. والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث(٦٥)..

ومن هنا بدت العظمة في حاجة إلى رد اعتبار، فقام العقاد بكتابة العبقريات ليؤكد في وضوح: أن العبقرية قيمة في النفس قبل أن تبرزها الأعمال، ويكتب لها التوفيق، وهي وحدها قيمة يغالي بها التقويم. فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية وميزان العمل، وميزان العقيدة، فهو نبي عظيم، وبطل عظيم، وإنسان عظيم وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بناناً تومىء إلى تلك العظمة في آفاقها(٦٧)..

وإذا كان هذا هو الدافع الأصيل لكتابة العبقريات. فإن الأستاذ غازي التوبة يقول: «إن العقاد كتب العبقريات دفاعاً عن إيمانه بالفرد وبالنظام الديمقراطي الذي هددته ــ كما يقول الأستاذ غازي ــ ثلاثة أخطار، هي: الفاشستية، والشيوعية، والمد الإسلامي. وقد دافع ــ العقاد ــ عنه في وجه الأخطار الثلاثة. فتصدى للفاشستية وكتب «هتلر في الميزان»(٦٨) وتصدى للشيوعية، ورد عليها في مقالات متعددة، وألف «الشيوعية والإنسانية»(٦٩). و«أفيون الشعوب المبادىء الهدامة»(٧٠). إلخ أما تيار المد الإسلامي، فقد حاربه بسلاحه وبشخصياته، فكتب العبقريات يؤكد صحة أفكاره في أولوية الفرد في التاريخ، وأحقيته كمحرك له، وليطعن في جدوى تنظيمات المد الإسلامي الجماعية، المتمثلة في الأخوان المسلمين، ويشوه إيمانهم بهذا الجانب الجماعي من الإسلام ويشككهم في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص، فالعظيم بفطرته، والعبقري عبقري بنشأته(٧١).

وأقول ــ والكلام للدكتور عبد المعطي بيومي ــ إن العقاد بما عرف عنه، لو أراد محاربة الاخوان المسلمين لحاربهم بصراحة دون هذا الالتواء والدوران، فلم هذه الحساسية المفرطة؟.. مع أن العبقريات لا تحتوي على إشارة واحدة تغض من قيمة هذه الجماعة على الإطلاق، ولا من قيمة الجماعة في مقابلة الفرد في الإسلام، فليس معنى إعطاء هؤلاء العظماء حقهم، إنه يغض من قدر الجماعة التي نبتوا فيها، أو الجماعة الإسلامية بوجه عام ثم إذا كان غرض العقاد في عبقرياته إثباته :

إن العظيم بنشأته، فإن عظماء الإسلام إنما هم عظماء بنشأتهم التي يشكل الإسلام أساسها، فلم نعتبر النشأة مستقلة عن الإسلام، ولا يمكن فصلها عنه(٧٢)..

لقد تسلمنا من العقاد الإسلام وقد تبينت شخصياته وشخوصه واتضحت معالم أبطاله، وملامح رجاله، واستوت أدوات التمحيص لعناصره وبذوره وموحياته..

والأستاذ غازي التوبة لم يقف عند هذا الحد، بل نراه يحاول أن يوجه إلى العقاد تهمة الابتعاد عن الحقائق في كتاب «عبقرية محمد» ويقيني إن الأستاذ غازي التوبة لم يقرأ كتاب «عبقرية محمد» قراءة واعية، ولو أنعم النظر قليلاً وتبصر في مقدمة الكتاب التي وضعها العقاد للعقلاء، لما ورد اتهامه.. وحتى لا يتهمني أحد بالتجني ولا أكون مجانباً للصواب، أضع أمام البحث ما قاله الأستاذ غازي التوبة ثم نأتي بما جاء في مقدمة كتاب «عبقرية محمد» ونحن ما نريد إلا الصواب ووجه الحقيقة، يقول غازي التوبة: «عرض العقاد لجوانب متعددة من عبقرية الرسول ونحن نقرر منذ البداية حقيقة أساسية هي أن الرسول كان إنساناً ممتازاً منذ الجاهلية، ممتازاً بكفاءته وإمكاناته ومواهبه الفطرية لكن العقاد يبتعد عن الحقيقة حينما يرجع نجاح محمد جندياً، وقائداً ومديراً، وزوجاً، وأباً إلخ إلى امتيازه الذاتي، وإلى مواهبه الفطرية(٧٣) كان الرسول عليه الصلاة والسلام حازماً عازماً لأن الإسلام نمّىٰ إرادته بالصيام والقيام. شجاعة، إقدام، ثبات، تضحية، صبر، حزم، عزم إلخ هذه الصفات المتناسقة المتكاملة، تولدت من بحر الإسلام الزاخر، لكن لماذا تجاهل العقاد أمثال هذه السمات؟ لماذا أغفلهن في عبقرية محمد العسكرية مع أنهن من لوازم القتال.

تجاهلهن العقاد واغفلهن لأنهن جئن من معين الإسلام الخالد وبطرق تربيته ومن خلال حقائقه، وهو قد أراد عبقرية الرسول العسكرية كعبقريات البشر الآخرين فلتة من فلتات الطبيعة، منبتة الأصول، شاذة الأسباب، لا تتصل بما قبلها أو بعدها(٧٤).. فصل العقاد بين الجانب المادي والجانب الروحي الغيبي في شخصية الرسول، وأظهره مجرد إنسان يعمل بمواهب نامية، وملكات متفتحة، وإحساسات متوفرة، ويعيش ضمن هذه المواهب والملكات والإحساسات(٧٥).

هذه هي العبارات التي سطَّرتها اتهامات غازي التوبة للكاتب الإسلامي الكبير عباس محمود العقاد، دون وجه حق، ولو تمعن غازي التوبة قليلاً فيما جاءت به أفكار العقاد، لاستراح،

وأراح.. قال العقاد في مقدمة كتابه «عبقرية محمد»: واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن «عبقرية محمد» بين يدي القراء نقول إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلفظ بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية.. وسيرى القارىء أن عبقرية محمد عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها. فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات على اعتقادنا إن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع ثم لا يقال أنه استنفد كل الاستنفاد.. وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعاً عنه، أو مجادلة لخصومه.. فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى.. إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان وليس في قلب كل مسلم وكفى، فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس، عظيم لأنه على خلق عظيم، ولهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين(٧٨).

وقد وضح للباحث من عبارة العقاد أن الكتاب جاء بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين، وهذا أنفع للإسلام وللمسلمين. وقد كان الكتاب رداً لأقاويل لغط بها الأغرار والجهلاء. وما كان غير العقاد يستطيع للتصدى لتلك الحذلقات، لأن العقاد ذو قلم جبار، وعقيلة فذة، غزت العقول بالعقل وأقنعت بالفكر..

وكتابات العقاد عن الشخصيات التي تناولها قلمه تنبىء عن قدرة العقاد على التجاوب مع إحساس الناس ومشاعرهم، بل يمكن أن نقول إن العقاد أقدر الناس على التعاطف مع الإنسان في عمومياته، وخصوصياته وهو من أبرع الناس في الالتقاء بالآخرين لقاءاً مبنياً على مشاعر وجدانية مختلفة، وعلى تفاهم في السلوك وفي قيم الحياة..

فالعقاد من الرجال الذين يتعلقون بالقيم وينشدونها في حياتهم ويدعمونها بقدر ما يملكون من الوسائل والأدوات.. والنزعة الإنسانية واضحة في تفكير العقاد وإعجابه بالخصال الإنسانية العالية لا يعلو عليه إعجاب(٧٩)..

وفي تقديم العقاد لمعاوية بن أبي سفيان، فرّق العقاد بين القدرة والعظمة بين الشخصيات والعبقريات، فقال: «والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوضيح الذي نعنيه فقد يقال عن العظيم أنه قدير ويقال عن القدير أنه عظيم ولا يخطيء القائل من الوجهة اللغوية في هذا الترادف مالم يقيدة الاصطلاح إنما الاصطلاح الذي نعنيه وننظر فيه إلى أحوال الطباع إن القدرة غير العظمة في الأشياء»..

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده، واحتجان منافعه والأضرار بغيره، ولكنه إذا وصف بالعظمة، فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه(٨٠)..

ويمضي العقاد في توضيح الاصطلاح الذي به يظهر الفرق بين القدرة والعظمة فيقول: «ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة بين القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيماً كان أم غير عظيم، بل نقدر الأشياء بمقاديرها، ولو لم يكن لها عمل، ولم تكن من وراء العمل نية، ولكننا إذا عظَّمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التي تلحظها الإنسانية باسرها، وتعود عليها في منافعها وخيراتها، فكل عظيم قدير ولكن ليس كل قدير عظيم.. والعظمة قدرة وزيادة أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة، فضلاً عن أن تكون عظمة زيادة، ومعاوية قدير ولا ريب(٨١).

وفي فلسفة دقيقة يحلل العقاد ما عناه من الفوارق بين اللفظين حيث إنَّ معاوية اشتهر بالدهاء فهو من دهاة العرب. ولكن ما هو الدهاء؟ إن بعض الناس يحسب أن الدهاء هو الشجاعة أو الزيادة عليها وهذا الاعتقاد خطأ، فالدهاء هو نقص في الشجاعة، فالداهية يحاول أن يغلب خصمه بمخادعته، وبوسائل وطرق وأمور عقلية ومادية، إلى غير ذلك من الأساليب التي تجعل الناس يقفون معه.. فكلمة الدهاء ما هي إلا تعزية وتغطية للخوف والجبن، لأنه وسائل غير صريحة يبلغ بها صاحبها مآربه، وينتهي بها إلى مقاصده، وبعبارة أخرى هو خداع وسلوك يصل بها الشخص بطريق غير مباشر إلى مقصده، ولكن هناك من يعتمد بدهائه على قدرة عقلية فائقة يستطيع بها أن يسخر الناس لخدمته، وهذا هو الدهاء من الطراز الأول،

وهناك الذي لا قدرة عقلية فائقة عنده ولكنه يعتمد على قدرة «مادية» يسّخر الناس بأمواله وبتسليمهم إلى هواه لنيل مطالبه(٨٢).

ويقول العقاد : لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة «غير صريحة» يبلغ بها صاحبها مأربه، وينتهي بها إلى منفعته، فكل حيلة «غير صحيحة» فهي دهاء على سواء.. إلا أن الواقع أن الوسائل «غير الصريحة» لا تتفق في مصادرها العقلية فقد يعتمد الرجل في دهائه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم في مطامعه، ويقودهم كما يقاد المسخر «بالتنويم المغناطيسي» لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لا فائدة لهم فيه على الإطلاق.. وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لا يفقهون، ويغشاهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير ما يقوله ذلك الداهية، أو يوحيه إلى شعورهم بغير مقال، هذا هو الدهاء من الطراز الأول، ويليه الدهاء الذي لا يعتمد على قدرة عقلية فائقة، ولكنه يعتمد على قدرة «مادية» يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس التبادل في المنفعة المعروفة التي يفهمها المتبادلون جميعاً بغير حاجة إلى تغرير أو خداع أو إقناع، رجل يملك السلطان أو المال، وأناس يحتاجون إلى سلطانه وماله، ولا يقدرون على بلوغ تلك الحاجة من غيره، فلا هو يخدعهم، ولا هم يخدعونه لأنهم كلهم يعرفون ما يطلبونه، ويعرفون وسيلتهم إليه، فلا خادع فيهم ولا مخدوع وإن لم يكونوا جميعاً صرحاء فيما يتوسلون به أو يتوسلون إليه(٨٣).

من أي هذين الطرازين دهاء معاوية؟

أمن طراز القدرة العقلية الفائقة التي تسخر الأعوان، منقادين مستسلمين مغمضي الأبصار والبصائر؟..

أم من طراز القدرة المادية التي تعطي وتأخذ ويعاملها طلاب الحاجات لأنهم يعرفون ما يحتاجون إليه، ولا يعرفون طريقاً إلى حاجاتهم تلك غير هذا الطريق.

بأي الدهائين تمكَّن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه، وغيرهم من الدهاة، الذين سارت بدهائهم الأمثال في صدر الإسلام(٨٤). إن دهاء معاوية، ليس من دهاء القدرة العقلية الفائقة، ولكنه دهاء مادي، فدهاء معاوية من قبيل الدهاء الذي يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر. فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذي يسوق الأعوان سوقاً

إلى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة، وغلبة الإقناع الذي لا برهان فيه على الحقيقة ولكنه ضرب من «التنويم المغناطيسي» تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة(٨٥)..

وبهذه النظرة الفلسفية حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة والعبقريات العظيمة.. وهناك عبارة جاءت في كتاب «رأيت وسمعت» لمحمد كرد علي تزيدنا توضيحاً لما يعنيه العقاد من قوله: هذه شخصية، وتلك عبقرية، يقول العقاد في هذا الكتاب: انطلق قلمي، وعقلي، وفكري وأنا أقف في الجانب المعارض للجاه، والسلطان والجبروت.. الملك فؤاد سجنني تسعة أشهر وغيره أقام عليَّ النكير والدعاوي المختلفة ولكني لم أذعن رغم كل ذلك لرغبات السياسة ولقد أخذت من التاريخ أمثلة أولها أن علي بن أبي طالب لو كان وصولياً لانتهى في يوم مؤتة، ولو كان الحسين بن علي لم يسبق أجله بعشر سنين أي لم يبع ما تبقى له من العمر بذلك الاستشهاد، لما ربح هذا الخلود العظيم هو وأبوه من قبله وأبناؤه الذين درجوا على بساطه الأحمر. قال لي مرة الأستاذ محمد علي كرد: لماذا لم تكتب لنا كتاباً عن معاوية كما كتبت عن علي؟ فأجبته أنا أعرف إنك وصولي مع الأحياء، ولكنني لا أعرف إنك وصولي حتى مع الأموات، إن صاحبك معاوية أراد الدنيا وأراد منها أن يكون ملكاً فكان ثم مات، فماذا يريد بعد هذا؟ الذي يطمع أن يكون ملكاً أو وزيراً أو نائباً ثم ينتهك كل الحرمات ليصل إلى شهوته.. أو تريد بعد هذا أن نخر له ساجدين في حياته وبعد موته(٨٦).

العقاد في هذه العبارة التي سجلها عليه محمد كرد علي يفرق بوضوح بين الشخصية والعبقرية، ذلك أن علي بن أبي طالب كان عبقرياً وعلى هذا فلابد أن الخليفة الذي على شاكلته عبقري أيضاً، ولكن العقاد يرفض هذا ويعتبر معاوية شخصية وليس عبقرياً، يعتبره مقتدراً وليس بالعظيم ومن هنا يتضح أن العقاد وضع العبقريات في مكان أرفع من الشخصيات وإلا فلماذا وضع معاوية في الشخصيات، وكذلك عثمان بن عفان في الشخصيات، وها هو حين يقدم شخصية عثمان بن عفان، يؤكد أن سيرته لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الإمام، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوي ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث غير باعث العقيدة والإيمان(٨٧)..

لذلك فهو ــ العقاد ــ لا يؤمن بالعبقرية لعثمان رضي الله عنه بقدر ما يؤمن بأنه ذو النورين «نور اليقين، ونور الخلق الأمين»(٨٨).

وهذه الشخصيات حين يتناولها العقاد بالبحث، فإننا نلاحظ هذه الأمور:

ـ إن هذه الشخصيات ليست صور أعلام ذوي حظ واحد في القدرة والكفاية، ولو أنها كانت كذلك لما غض ذلك من شأنها، فمن كان يعرف حرفاً واحداً من أبجدية الكفايات الإنسانية فهو على حظ كبير من المعرفة الإنسانية ولكنه لاشك أقل وعياً عمن يعرف جملة حروف منها، وتراجم العقاد تمثل عدة أنماط من القدرة الشخصية.

ـ يغلب على التراجم أنها لا تؤدي أبرز ملامح صاحبها وأعماله فحسب بل تنفذ إلى محور شخصيته الذي تدور عليه شمائله ومساعيه، وأعماله وأقواله، وتميز ملامحه من ملامح أشباهه، وفق طراز قدرته وتعلل أسباب ذلك أو تفسرها سواء أذكر ذلك المحور في الترجمة أم لم يذكر.

ـ تدل معظم التراجم على نمط القدرة التي تشمل هذه الشخصية ومن يشبهه وإن لم يماثله، فأنت إذا عرفت قسمات هذه الشخصية وحدودها وصادفت تلك الملامح، في إنسان آخر، حكمت له بمثل ما حكمت للأول أياً كان حظه دون خلط.

ـ يغلب على التراجم أن تنفذ بنا إلى حقيقة قدرة الشخصية بعامة واختلاف نمطها عن أنماط الكفايات والقدرات الأخرى، فلا نخلط بين هذا وغيره من ذوي المواهب والملكات التي ترفع صاحبها على الغمار أو لاترفعه.

ـ في تراجم العقاد سر آخر غير كثرة صور أعلامه، هذا السر هو سهولة الأداء عن كل ذي قدرة أياً كان نوع قدره وحظه منها، ثم اتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة عن غيرها.. ولهذا تبدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها فقبلتها براعته دفعة واحدة، شأنها شأن بدء الحياة في خروجها من الأرحام إلى أيادي القوابل(٨٩).

إن العقاد كان ينفعل مع شخصياته أثناء كتابتها، حتى أنه يذكر إنه كان يكتب الفصل الواحد من «الحسين» وعيناه مغرورقتان بالدموع مع إنه يفترض فيه أن يكون محايداً.. وبهذا الأسلوب ـ أسلوب التفريق بين العبقرية والشخصية والعظمة والقدرة ـ كتب العقاد تراجم شخصياته وهي: الزهراء والفاطميون، والصديقة بنت الصديق، وأبو الشهداء الحسين بن علي، وذو النورين عثمان بن عفان وبلال بن رباح، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان في الميزان(٩٠)

ومما يذكر أن العقاد قد اهتم اهتماماً واسعاً بالعظماء، وهذا الاهتمام قائم على فلسفة العقاد الإنسانية التي تربط الإنسان بالعظمة والقدرة، وقد سأل العقاد نفسه: لِمَ نكتب ترجمة العظماء؟..

ويجيب قائلاً: إننا نكتب هذه التراجم لإرضاء الشغف النفسي بالوقوف على كل سر، والإحاطة بخفايا الوجود، ولا سيما خفايا النفس الإنسانية التي هي قبلة الإنسان، وغاية ما يشغله وتستجيش عطفه وتفكيره. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نكتب تراجم العظماء لإنصافهم وتقديرهم وإعطائهم حقهم من جزاء التبجيل والإعجاب ثم نكتبها من جهة غير هذه وتلك لنستحث المقتدين بهم على ترسم خطواتهم والتطلع إلى مراتبهم(٩١).

والشيء الذي يدل دلالة واضحة على فلسفة العقاد فيما كتبه في العبقريات والشخصيات هو المحادثة التي دارت بين العقاد وبين «جودالللا» حينما التقى به(٩٢).

فقد قال جود اللا: أن المصريين يضحكون في مواضع الضحك التي يفطن لها الإنجليز، ويشبهون نظراءهم من السامعين هناك في التفاتات الذهن ومواقف التعقيب عند الإصغاء إلى حديث، قال: «والضحك علامة الحضارة لأن الشعوب البربرية لا تضحك فذكرنا ــ هكذا يقول العقاد ــ في تلك اللحظة قولة لنيتشة»: إن الضحك من نكتة واحدة هو أول الدلائل على تقارب فكرين..

ويتلخص رأى جود اللا ــ كما عرضه العقاد ــ في أن الترجمة هي تاريخ من التواريخ يطبق على الأفراد بدلاً من تطبيقه على الأوطان والأقوام، وهي من ثم جديرة بأكبر عناية في العصور الحديثة التي شاع فيها تهوين الفرد، وتعظيم شأن القوى، والعوامل الجامعة فإن الفرد لا ريب يدل على شيء كثير، لأنه يرتفع على القمة فيشير إلى اتجاه التيار فإن لم يكن هو الفعال لكل شيء في زمانه، فهو على التحقيق دليل على مجرى الزمن، وعلى ما يكمن وراءه من الدوافع والمؤثرات.

ولما تعرض (جود اللا) لفن السيرة أو فن كتابتها، حذر الكاتب من فتنتين تغريانه من جانبين مختلفين: أحدهما جانب البلاغة الأدبية، والآخر جانب النفسية أو السيكولوجية، فليس الغرض من الترجمة إخراج قطعة من الأدب البليغ، وإن صح أن تجيء أدباً بليغاً في عرض الطريق، وليس الغرض منها عرض النظريات النفسية التي قلما تفضي إلى يقين، لأنها بين شيء

مرفوض معلوم من قبل، وشيء لا نرفضه ولا نعلمه على الإطلاق، وفي كلا الأمرين مضلة تستلزم التحذير..

ثم حذر «جود اللا» من خطأين آخرين عند الكتابة عن الأقدمين خطأ النظر «الفوقاني» أو النظر إلى أعلى وهو ينتهي إلى الأطناب في الحساسيات والبطوليات، وتخيل الأقدمين كأنهم جيل من العمالقة أو الملائكة العلويين.. وخطأ النظر «التحتاني» أو الترفع عن الأقدمين، كأنهم أطفال في حاجة إلى التربيت والأغضاء، مع شيء من الابتسام والاستهزاء..

وإنما النظرة الوسطى هي النظرة القويمة أو النظرة السواء لا إلى الأعلى ولا إلى الأدنى، فتراهم بالعين التي تنظر إلى الحياة اليومية ولا تعيبها مبالغة في الإكبار أو مبالغة في التصغير..

وقال: إن الكاتب الذي يشغل ذهنه فترة طويلة بالبحث في سيرة عظيم من العظماء لا يلبث أن يشعر عامداً أو غير عامد، أنه تقمص ثياب «سكرتير خصوصي» لذلك العظيم.. فهو يجاريه في ميوله ويترقب ملاحظاته، وإشاراته، فيفوته ومن ثم أن يستقل بذهنه في النظر إليه، وهذه أيضاً فتنة من فتن الترجمة المغرية للكتابة، عليهم أن يتقوها جاهدين ليكتبوا عن عظمائهم عادلين مستقلين..

ويعقب العقاد على ذلك بقوله: «تلك خلاصة مقربة لجملة الآراء التي تشتمل عليها فلسفة الترجمة في رأي الأستاذ «جود اللا» وهي آراء نوافقه على معظمها، ولا نكاد نخالفه إلا في الميل إلى البطولة أو إلى الصيغة الأدبية، فإذا استطاع الكاتب أن يستروح نفحة البطولة من مترجمة، وأن يبثها في قلوب قرائه، فهو في اعتقادنا عمل لاضير فيه. بل هو واجب مطلوب مفيد لاغبار عليه.. وكذلك إذا استطاع أن يرضي ذوق الفن، ويرضي الحقيقة في وقت واحد، فتلك غاية حرية أن تتطاول إليها أعناق الكتاب.. لأن تجميل الحياة بالصدق الفني غرض من الأغراض النبيلة التي نخلص إليها من طريق التراجم، كما نخلص إليها من طريق الشعر، والنحت والتصوير، والغناء، فكل حياة خلت من الجمال الفني، ومن الصورة المثالية التي يسبغ عليها ذلك الجمال، هي حياة فاترة أو حياة ناقصة، لا تستحق أن تعاش، وإنما مقياس الحياة التي نكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي تعاش(٩٣).

● الهوامش ●

(١) الدكتورة نعمات أحمد فؤاد «الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد».
سلسلة اقرأ عدد رقم ٤٠٩ ص ٣٩ ط دار المعارف بمصر مارس ١٩٨٠م.

(٢) العقاد «أبو نواس الحسن بن هاني» ط دار الكتاب اللبناني.

(٣) الأستاذ سامح كريم. «ماذا يبقى من العقاد» ص ٧٦ ص دار القلم بيروت.

(٤) العقاد المجموعة الكاملة المجلد السابع عشر ص ٢١٣ ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

(٥) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٧٧ ط دار القلم بيروت.

(٦) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٧٧ ط دار القلم بيروت.

(٧) الدكتورة نعمات أحمد فؤاد. الجمال والحرية والشخصية الإنسانية ص ٥٣ ط دار المعارف بمصر، والكواكبي للعقاد ص ٣٨٥ ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

(٨) العقاد. الكواكبي. ص ٣٨٧ ط دار الكتاب اللبناني. المجلد رقم ١٧.

(٩) الدكتورة نعمات أحمد فؤاد. الجمال والحرية والشخصية الإنسانية ص ٥٣ ط دار المعارف.

(١٠) العقاد المجموعة الكاملة. المجلد الثالث ١١ ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

(١١) الدكتورة نعمات أحمد فؤاد. الجمال والحرية والشخصية الإنسانية ص ٥٦ ط ـ دار المعارف بمصر.

(١٢) العقاد المجموعة الكاملة المجلد التاسع عشر تراجم وسير ص ٥٠٩ ط دار الكتاب اللبناني. بيروت.

(١٣) المصدر السابق ص ٥١٠.

(١٤) الدكتور جميل صليبيا. المعجم الفلسفي الجزء الثاني ص ٥٣، ٥٤ طبع دار الكتاب اللبناني بيروت. والعبقري نسبة إلى عبقر، وهو كل ما يتعجب من كماله، وقوته، وروعته، فالعبقري من الأشخاص هو المتميز، المبرز الذي لا يفوقه في اختراعه أحد يقال شاعر عبقري. والعبقري من الأشياء ما يدهشنا ويحيرنا ويجاوز الأنواع التي ـ ألفناها من روائع الفن وعجائب الصناعة.. وعبقري التي تنسب إليها كلمة «عبقري» موضوع زعم العرب إنه موطن للجن، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وروعته، أو جودة صنعه «المعجم الفلسفي». وقريب من معاني العبقرية ـ ونسبتها إلى عبقر ما جاء في الكتب التالية:

- الإمام الخطيب السرميني في كتابه «السراج المنير» ج ٤ ص ١٧٧.
- الإمام الحافظ ابن كثير في كتابه «تفسير القرآن العظيم» ج ٤ ص ٢٨٠ ط سنة ١٣٤٠هـ.
- الإمام فخر الدين الرازي في كتابه «التفسير الكبير» ج ٨ص ٣٧ الطبعة الثانية.
- رأي العلامة أبو السعود في هامش كتاب «التفسير الكبير «ج٨ ص ٣٩ الطبعة الثانية.
- رأي العلامة الطبري في كتابه «جامع البيان» ج٢٧ ص١٦٤ الطبعة الثانية.
- رأي الزمخشري في كتابه «الكشاف» ج٤ ص ٥٠ طبع طهران.
- الشيخ عبد الجليل عيسى في كتابه «المصحف الميسر» ص ٧١٣ ط رقم ٣.
- العلامة سليمان الجمل في كتابه «الفتوحات الإلهية» ج٤ ص ٢٦٩ طبعة الحلبي.
- مجمع اللغة العربية معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد ٢ ص ١٨٥ الطبعة الثالثة.
- الإمام القرطبي الجامع القرآن ج١٧ ص ١٩١ ط سنة ١٣٨٧هـ.

(١٥) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٧٧ ط دار القلم بيروت.

(١٦) والتحليل النفسي هو في نهاية الأمر ذلك العلم الخاص بتعمق البحث في الحياة النفسية في أعماقها السحيقة في تاريخها القريب والبعيد، بغية فهم وتفسير الظواهر السلوكية التي تصدر عنها، واكتشاف ما تخضع له من قوانين. د. فرج عبد القادر طه «التحليل النفسي والمنهج العلمي» ص ٧٢ مجلة.
دراسات فلسفية، العدد الثاني ١٩٧٧ دار الكتاب الدار البيضاء المغرب.
والتحليل عكس التركيب وهو إرجاع الكل إلى أجزائه فإذا كان الشيء المحلل واقعياً سمي التحليل حقيقياً أو طبيعياً. وإذا كان ذهنياً سمي التحليل خيالياً. وقد يكون التحليل حقيقياً ولا يكون مادياً كالتحليل النفسي الذي يرجع الوظائف النفسية إلى أجزائها وعواملها. فكل تحليل مادي كالتحليل الكيميائي تحليل حقيقي، وليس كل تحليل حقيقي بتحليل مادي. وينقسم التحليل بوجه آخر من القيمة إلى تحليل تجريبي، وتحليل عقلي، فالتحليل التجريبي هو المعول عليه في الطريقة التجريبية بمراحلها المختلفة، أما التحليل العقلي أو الياضي فهو أن ـــ تؤلف سلسلة من القضايا أولها القضية المراد إثباتها، وأخرى القضية المعلومة بحيث إذا ذهبت من الأولى أي القضية المراد إثباتها إلى الأخيرة أي القضية المعلومة كانت كل قضية نتيجة ضرورية للتي بعدها «المعجم الفلسفي» للدكتور جميل صليبا ج١ ص٢٥٤، ٢٢٥ط دار الكتاب اللبناني.

(١٧) السلوك: السيرة، والمذهب، والاتجاه، وعلم السلوك عند القدماء هو معرفة النفس ما لها، وما عليها. ويسمى بعلم الأخلاق، وموضوعه: أخلاق النفس والبحث عن عوارضها الذاتية لمعرفة الطريق التي يجب سلوكها. والسلوك عند علماء النفس المحدثين مجموع ما يقوم به الكائن الحي من ردود فعل مترتبة على تجاربه السابقة سواء أكانت مشتركة بين أفراد النوع أم خاصة بفرد دون آخر، وهو يتضمن الأفعال الجسمانية الظاهرة والباطنة. والعمليات الفسيولوجية والوجدانية والنشاط العقلي. المعجم الفلسفي ج٢ ص٦٧١.

(١٨) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٧٧ ط دار القلم بيروت.

(١٩) العقاد العبقريات. المجلد الأول ص ١٤ ط دار الكتاب اللبناني.

(٢٠) المصدر السابق ص ١٥.

(٢١) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد. ص ٧٩ ط دار القلم بيروت.

(٢٢) الإمام محمد عبده. رسالة التوحيد. ص ١١٥ ط الهلال عدد رقم ١٤٣ رمضان ١٩٨٢م.

(٢٣) الدكتور محمد حسين هيكل [حياة محمد] ص ٣٥.

(٢٤) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٨٠ ط دار القلم بيروت.

(٢٥) المصدر السابق ص ٨٠.

(٢٦) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٨٠ ص دار القلم بيروت.

(٢٧) الأستاذ حمد بن نايف الشمري، العقاد وتراثه الإسلامي ص ٧٤ ط التقدم.

(٢٨) العقاد العبقريات الإسلامية. المجلد الأول ص ١٦٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٢٩) العقاد العبقريات الإسلامية. المجلد الأول ص ١٦٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٠) الأستاذ حمد بن نايف الشمري. العقاد وتراثه الإسلامي ص ٧٤ ط التقدم مصر.

(٣١) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٨٢ ط دار القلم بيروت.

(٣٢) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٤٣٤ وص ٢٢٦ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٣) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٤٣٣ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٤) العقاد العبقريات المجلد الأول ص ٢٢٧ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٥) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٤٣٤ ص ٢٢٦ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٦) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٢٢٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٧) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٢٤٦، ٢٤٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٨) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٢٤٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٣٩) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٢٤٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٤٠) الدكتور شوقي ضيف. مع العقاد ص ٨٨ط دار المعارف. والأستاذ سامح كريم ماذا يبقى من العقاد ص ٨٣ ط دار القلم بيروت.

(٤١) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٨٣ط دار القلم بيروت.

(٤٢) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٨٣ط دار القلم بيروت.

(٤٣) العقاد العبقريات، المجلد الأول ص ٣٧٧ط دار الكتاب اللبناني.

(٤٤) المصدر السابق ص ٣٧٩.

(٤٥) الدكتور شوقي ضيف. مع العقاد ص ٨٨ ط دار المعارف «اقرأ».

(٤٦) فري الجلد: قطعة ليصلحه، وفري الفري. أتى بالعجب. والمعنى أن عمر عبقري منفرد في عمله، فلا أحد يقدر على أن يصنع مثل صنيعه هامش ص ٣٨١ من عبقرية عمر.

(٤٧) اسم من ندبه للأمر أي دعاه.

(٤٨) العقاد. العبقريات. المجلد الأول ص ٣٨١ ط دار الكتاب اللبناني.

(٤٩) العقاد. العبقريات: المجلد الأول ص ٣٨٠ ط دار الكتاب اللبناني. وينظر أيضاً الأستاذ حمد بن نايف الشمري في كتابه «العقاد وتراثه الإسلامي» ص ٧٨ ط التقدم.

(٥٠) النخوة: العظمة والكبر والفخر، نخا، ينخو، ونُخِيَ، وهو أكثر. وأنشد.. الليث: [وما رأينا معشرا فينتخوا]. ويقول الأصمعي: زهي فلان فهو مزهو، ولا يقال: زها. ويقال: نخي فلان وانتخى، ولا يقال: نخا، ويقال انتخى فلان علينا أي افتخر وتعظم «ابن منظور لسان العرب ص ٤٣٧٩ ط المعارف».

(٥١) العقاد: العبقريات، المجلد الثاني ص ٢٩ ط دار الكتاب اللبناني.

(٥٢) الأستاذ سامح كريم. ماذا يبقى من العقاد ص ٨٥ ط دار القلم بيروت.

(٥٣) العقاد العبقريات، المجلد الثالث ص ٤٠٥ ط دار الكتاب اللبناني.

(٥٤) الدكتور شوقي ضيف مع العقاد ص ٨٩ سلسلة اقرأ ط دار المعارف.

(٥٥) الأستاذ سامح كريم ماذا يبقى من العقاد ص ٨٦ ط دار القلم بيروت.

(٥٦) الدكتور عبد المعطي بيومي. تجديد الفكر الإسلامي في العصر الحديث ص ٤٦٠ ط استنسل. مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة.

(٥٧) المصدر السابق. ص ٤٦٠.

(٥٨) الديدي. عبقرية العقاد ص ١٤٥ط الهيئة القومية.

(٥٩) العقاد. «العبقريات» المجلد الأول ص ١٦ ط دار الكتاب المصري.

(٦٠) الديدي. عبقرية العقاد ١٤٦ط الهيئة القومية.

(٦١) الدكتور عبد المعطي بيومي تجديد الفكر الإسلامي ص ٤٦٠ ط (استسل).

(٦٢) الأستاذ غازي التوبة الفكر الإسلامي المعاصر ص ١٦٢، ١٦٣ الطبعة الثالثة دار القلم.

(٦٣) الدكتور عبد المعطي بيومي. تجديد الفكر الإسلامي ص ٤٦٠ ط «استسل».

(٦٤) العقاد. الإسلاميات. مطلع النور ص ٢١٣ط دار الكتاب اللبناني.

(٦٥) العقاد. العبقريات. المجلد الأول ص ١٥ط دار الكتاب اللبناني.

(٦٧) العقاد. العبقريات المجلد الأول ص ١٧ط دار الكتاب اللبناني.

(٦٨) طبع أول طبعة سنة ١٩٤٠ (٦٩) طبع أول طبعة سنة ١٩٥٥ (٧٠) طبع أول طبعة سنة ١٩٥٦م.

(٧١) الأستاذ غازي التوبة الفكر الإسلامي المعاصر ص ١٦٦ الطبعة الثالثة دار القلم..

(٧٢) الدكتور عبد المعطي بيومي تجديد الفكر الإسلامي ص ٤٦١ط استسل رسالة دكتوراه.

(٧٣) الأستاذ غازي التوبة «الفكر الإسلامي المعاصر» ص١٤٥ الطبعة الثالثة دار القلم.

(٧٤) الأستاذ غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر ص ١٤٦ الطبعة الثالثة، دار القلم.

(٧٥) المصدر نفسه ص ٤٩.

(٧٨) العقاد العبقريات المجلد الأول ص ١٤ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

(٧٩) الديدي عبقرية العقاد ص ١٤٤ط الدار القومية..

(٨٠) العقاد العبقريات المجلد الرابع ص ٢٠٩ط دار الكتاب اللبناني.

(٨١) المصدر السابق ص ١٠٩.

(٨٢) الأستاذ حمد بن نايف الشمري «العقاد وتراثه الإسلامي» ص ٦٤ مطبعة التقدم.

(٨٣) العقاد، العبقريات، المجلد رقم ٤ ص ٢٢٤، ط دار الكتاب اللبناني.

(٨٤) العقاد: العبقريات، المجلد رقم ٤ ص ٢٢٤، ط دار الكتاب اللبناني.

(٨٥) المصدر السابق ص ٢٤٤.

(٨٦) الأستاذ سامح كريم: ماذا يبقى من العقاد ص ٨٧، ٨٨، ط دار القلم بيروت.

(٨٧) العقاد العبقريات، المجلد رقم ٣ص ١٥، ط دار الكتاب اللبناني.

(٨٨) الأستاذ سامح كريم، ماذا يبقى من العقاد، ص ٨٨ط دار القلم بيروت.

(٨٩) الأستاذ سامح كريم: ماذا يبقى من العقاد، ص ٨٨، ٨٩، ط دار القلم.

(٩٠) المصدر السابق ص ٨٩ بتصرف.

(٩١) الأستاذ سامح كريم، ماذا يبقى من العقاد ص ٨٩ط دار القلم بيروت.

(٩٢) جود اللا هو صاحب سيرة تشرشل، وسيرة بالمرستون، وسيرة نابليون الثالث، وسيرة ولنجتون، وفي أثناء مروره بمصر ألقى محاضرة عن العمل المترجم وبعد انتهاء المحاضرة التقى به العقاد في بيت الدكتور هيكل، ونشر العقاد بهذه المناسبة مقالاً كاملاً عن «فلسفة التراجم» بمجلة الرسالة في ٢٢ من مارس سنة ١٩٤٣ «عبقرية العقاد للديدي».

(٩٣) الديدي، عبقرية العقاد ص ١٥٠، ١٥١ طبع الدار القومية.

● ● ●